امبراطور برازيل

تمهيد

اذا قيست سعادة الملوك بما ينالهم من النفع والضر واعمالهم بعواقبها عليهم فامبراطور برازيل من اسوإ الملوك حالاً واحبطهم اعمالاً لانهُ لم يكد يبلغ الخامسة من العمر حتَّى أُجبر ابوهُ على هجرانهِ والابتعاد عنهُ الى حيث لا يراهُ مدى العمر ولم يبلغ الخامسة عشرة حتَّى أُلقي على عاتقهِ عبء مملكة واسعة الارجاء كثيرة الاحزاب ضربت الثورة فيها اطنابها وطمعت الممالك المجاورة لها فيها . ولم يكد يخمد الفتن الداخلية حتَّى اثارت عليهِ جمهوريَّة براغواي حربًا عوانًا قُتل فيها ثمانون الفًا من جنودهِ وانفقت حكومتهُ عليها نحو الفي مليون من الفرنكات . ثم قلقت بلادهُ ونقم كثيرون من اهاليها عليهِ بسبب الغاء الرق ولم تصفُ لهُ كأس الحياة زمانًا طويلاً حتَّى أُجبر على خلع شعار الامبراطوريَّة وترك البلاد التي عاش بها وبذل ما في وسعهِ لرفع شأنها . ووافتهُ المنية غريبًا عن وطنهِ مخلوعًا من منصبهِ

واذا قيست سعادة الملوك بما يجدونهُ في نفوسهم من الراحة والطمأنينة واعمالهم بنفعها لرعيتهم وللناس اجمع فامبرطور برازيل من اسعد الملوك حالاً وافضلهم اعمالاً لانهُ عاش قرير العين بانهُ قام بالواجب عليهِ نحو رعيتهِ وابناء جلدتهِ ولانهُ رفع شأن بلادهِ واورد اهاليها موارد الخير والسعادة وجعل لها اسمًا بين ممالك الارض وسيبقى اسمهُ خالدًا في بطون التواريخ ما دام للفضيلة انصار وللذين افادوا نوع الانسان اقدار واخطار

بلاد برازيل

وقد اكتشف الاسبانيون والبورتوغاليون بلاد برازيل سنة ١٥٠٠ للميلاد فاعلن ملك البورتوغال اكتشافها وضمَّها الى مملكتهِ وسُميت بلاد برازيل من خشب برازيل المشهور لكثرتهِ فيها . ورأى البورتوغاليين في برازيل غنًى وافرًا وخيرات لا تنفد فاستأثروا بها غير خائفين ان يشاركهم احد من اهالي اوربا فيها لبعدها عنهم .

وسنة ١٨٠٧ حاول نبوليون بونابرت ضم مملكة البورتوغال الى مملكة اسبانيا فوكلت العائلة المالكة في البورتوغال حماية بلادها الى انكلترا وهاجرت الى بلاد برازيل واقامت فيها الى سنة ١٨٢١ وحينئذٍ ثار البورتوغاليون وطلبوا رجوع ملكهم من برازيل فرجع منها وترك فيها وليَّ عهدهِ دن بدرو الاول ناصحًا لهُ ان لا يتقاعد عن الاستقلال بالملك فيها اذا الجأتهُ الحال الى ذلك لانهُ رأى فيها حزبًا قويًا يميل الى الاستقلال

دن بدرو الاول

ولما عاد الملك الى بلاد البورتوغال اراد مجلسة فيها ان يقلل من امتيازات برازيل ويردها الى ما كانت عليهِ قبلاً مستعمرة من مستعمرات البلاد واستدعى دن بدرو الى اوربا فاغتاظ البرازيليون من ذلك وطلبوا منهُ ان يجاهر باستقلال بلادهم ويبقى عندهم ملكًا عليهم والاَّ جاهروا هم بالاستقلال واستدعوا ملكًا آخر ليملك عليهم . واقنعوهُ بالبقاء فبقي عندهم واستقلَّت بلاد برازيل عن بلاد البورتوغال وجعلت دن بدرو امبراطورًا عليها

ولم يمضِ الاَّ قليل حتَّى وقع الخلاف بين هذا الامبراطور والحزب الحر من رعيتهِ على الدستور الذي سنَّهُ لهم وتنافر الخطب فاضطرَّ ان يعزل وزراءهُ لانهُ آنس منهم ضعف العزيمة فقام الحزب المضاد له وشدُّوا ازرهم بالوزراء المعزولين وطلبوا منهُ ان يردهم الى مناصبهم فاجابهم انني مستعد ان افعل كل ما يرضي الشعب ولكنني لا افعل ذلك بقوة الشعب ثم تنازل عن الملك لابنهِ دن بدرو الثاني وعمرهُ اذ ذاك خمس سنوات وكان ذلك في السابع من ابريل سنة ١٨٣١

دن بدرو الثاني

ولد في الثاني من دسمبر (ك١) سنة ١٨٢٥ وتوفيت امهُ في السنة الثانية من عمرهِ وكان ابوهُ دون بدرو الاول منهمكًا بمهام السياسة فلم يهتم بتربيتهِ ثم تنازل له عن الملك وهاجر برازيل على غفلة وكان هذا الولد واختاهُ يتامًا فلم يوقظهم من نومهم بل قبَّلهم والدموع ملء عينيهِ وكان ذلك بمشهد من اهل بلاطهِ وسفيري فرنسا وانكلترا . ولا يبلغ الامبراطور سن الرشد بحسب شريعة برازيل الاَّ في السنة الثامنة عشرة ويبقى في غضون ذلك تحت وصي من انسائهِ اذا وجد منهم مَن فيهِ الكفاءة والاَّ فمجلس النواب يقيم له ثلاثة اوصياء يكون اكبرهم سنًّا رئيسًا عليهم فاقاموا عليهِ ثلاثة اوصياء ثم حصروا الوصاية في واحد وانتُخب لدون بدرو الثاني افضل الاساتذة فربوهُ وهذبوهُ وثقفوا عقلهُ بالعلوم والفنون وكان ذكيًّا متوقد الذهن فبرع في العلوم الفلسفية والرياضية والطبيعية والادبية حتَّى عجب الناس من فرط ذكائهِ وخاف اساتذتهُ عليهِ ان يضني جسمهُ بكثرة الدرس والمطالعة وتمكنت منهُ محبة العلم والعلماء الى الممات كما سيجيء

وسنة ١٨٤٠ كانت الثورة قد ضربت اطنابها في احسن ولاية من ولايات برازيل وانتشر سمُّها في كثير من الولايات . وكان في مجلس النواب حزبان حزب الاحرار وحزب المحافظين والاول اقل عددًا من الثاني ولكنهُ اجهر صوتًا واكثر قلقلة فطلبوا ان

يعلن رشد الامبراطور وان يستلم زمام الامبراطورية بيده فدعا ذلك الى ان حلّ الوصيُّ مجلس النواب . فثار بعض اعضائهِ وكتبوا الى الامبراطور يقولون ان حل الوصي لمجلس النواب حينما طلبوا اشهار رشدهِ اهانة لشخصهِ وخيانة للبلاد وطلبوا اليهِ ان يستلم زمام الحكومة بيدهِ والاَّ ادّت الحال الى ما لا تحمد عقباهُ . فعرض الوصي ذلك على الامبراطور بدلاً من ان يصرف الثائرين ويخمد ثورتهم بالسياسة والحكمة فقبل الامبراطور ان يستلم زمام الحكومة واشهر رشدهُ حينئذٍ وله من العمر خمس عشرة سنة

وكانت الثورة قد تمكنت من البلاد كما تقدّم واشتدَّ الخلاف بين الاحرار والمحافظين ولم يكد يخمدها و يوفّق بين هذين الحزبين حتّى شهرت جمهورة لابلاتا الحرب على برازيل فاستعانت برازيل عليها بولاية من ولايات ارجنتين وقهرتها وكان ذلك سنة ١٨٥٣

ومن ثمَّ رتعت البلاد في بحبوحة الامن وبذلت الحكومة عنايتها في مد السكك الحديدية وتنشيط الزراعة والصناعة والتجارة وانتشرت زراعة البن والسكّر والتبغ والقطن في البلاد فعادت بالخير الوافر على الاهلين . وطاف الامبراطور بانحاء مملكتهِ وخبر احوالها بنفسهِ فتمكّن من معالجة ادوائها وتقوية عوامل الاصلاح فيها

وحدث على اثر ذلك خلاف بين حكومتهِ والحكومة الانكليزيّة افضى الى اهتمام بلادهِ بانشاء البوارج الحربية لحماية ثغورها ثم نشبت الحرب بين برازيل و براغواي ودامت خمس سنوات . وقتل فيها مئتا الف من اهالي براغواي وثمانون الفاً من جنود برازيل وعشرة آلاف من انصارهم فباهى اهالي برازيل بامبراطورهم لما نالهُ من الفوز المبين وجمعوا ثلاثة ملايين فرنك ليقيموا لهُ بها تمثالاً و بلغهُ ذلك فصرفهم عن عزمهم وامرهم ينفق المال على تعميم المعارف . وانعم على الجنود وقوادهم بالرتب والرواتب جزاء ما اظهروهُ من البسالة في الذود عن شرف الوطن

وكانت الحكومة قد ارتأت مصالحة رئيس جمهورية بارغواي قبل استتباب النصر فابى الامبراطور ذلك لاعتقادهِ ان ذلك الصلح يهين شرف الامبراطورية و يعود عليها بالويل وفضّل التنازل على الصلح كأنهُ تمثّل بقول المشبراييوس كلوديوس الضرير الذي قال كنت اشكو من الآلهة لانها اعمتني اما الآن فاني اشكرها على ذلك واشكو لانها لم تعدمني السمع لكي لا اسمع ما يهين وطني

ثم وجه اهتمامهُ الى الغاء الرق فالغى الخاصة اولاً ثم سنَّ قانوناً في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٧١ باعتاق كل من يولد من رقيقة بعد ذلك التاريخ والتعويض على سيدهِ لغاء

تربيته له الى ان يبلغ سن العشرين فقبل الشعب ذلك بالشكر

وفي تلك السنة استأذن الامبراطور من مجلس النواب في الغياب عن بلاده مدة سنة وساح في اوربا وجاء الديار المصرية ايضاً وكان حينما حلّ يزور المدارس والمحافل العلمية ويدهش العلماء بعلمه ومسائله فاهدت اليه المحافل العلمية والصناعية اسمى وساماتها وعاد الى بلاده وقد احرز لها منافع جمّة بالمعاهدات التجارية التي عقدها مع ممالك اوربا وبما خبره بنفسه من تقدم اوربا في العلم والعمل ووجه معظم اهتمامه الى نشر التعليم في بلاده حاسباً انه اساس كل ارتقاء حقيقي فأنشأ المدارس الكثيرة واحاطها بالحدائق الغناء ورغّب الطلبة في الدرس بوسائط كثيرة واصلح دستور البلاد

سياحته الثانية

لما عاد الامبراطور من سياحته الاولى عند النية على زيارة الاماكن التي لم تمكنه الفرصة من زيارتها حينئذٍ فاستأذن مجلسه سنة ١٨٧٥ وزار الولايات المتحدة الاميركية في العام التالي فقوبل فيها بزيد الاحتفاء والاحتفال واتى منها الى اوربا وزار بلاد الشام واقام في مدينة بيروت مدة زار فيها مدارسها ومستشفياتها وكنا حينئذٍ في المدرسة الكلية السورية ندرّس الطبيعيات والرياضيات والفلك فكان حديثه معنا في هذه العلوم والكتب الحديثة فيها والكتب التي كنا نعتمد عليها في التدريس فرأينا منه بحرًا زاخرًا وعالمًا مطلعًا على دقائق هذه العلوم وشواردها والمؤلفات الحديثة الموضوعة فيها . ولما اخبرناه اننا نعتمد على كتب رو بنصن في الرياضيات قال احسنتم فانها افضل من كتب فلان وفلان الشائعة في اكثر المدارس واخذ يشرح وجوه تفضيلها . ورأى المقتطف ونظر في مواضيعه واخذ الاجزاء التي صدرت منه الى ذلك الوقت وحثّنا على المثابرة عليه وقال لا بدّ لي من ان ادرس العربية لاطالع بعض ما كُتب فيها ودخل مرصد المدرسة الكلية وخاطب استاذنا الدكتور فان ديك قائلاً "لاحاجة لان يعرفني بك احد ايها الدكتور الفاضل فانك معروف عندي ولطالما سمعت عن واسع علمك وفرط اجتهادك ووددتُ لو قيّض الله لي مشاهدتك حتّى اسعد في الحظ برؤيتك كما رأيت علماء الارض رفقاءك" ولما ودّعه قال هل لي ان احمل تصانيفك معي لتتم بها زينة مكتبتي فقدمها استاذنا لجلالته

هذه كانت معاملته لارباب العلم وطلّابه وقد رأينا الفناصل الجنرالية وغيرهم من رجال السياسة وقوفًا بين يديه بما لامزيد عليه من المهابة والوقار وهو لا يخل بهم كما يخفل بأصغر طالب من طلّاب العلم

وعاد الى بلاده وواظب على الاهتمام بامر المعارف واصلاح شؤون الرعية والظاهر انه اهمل امر الجنود فتمرّدوا عليه ونادوا في السادس عشر من شهر نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٨٩ بزوال الامبراطورية وبان البلاد صارت جمهورية وفي اليوم التالي سافر الامبراطور وعائلته الى اوربا واقام فيها الى ان دعاهُ داعي الردى في الخامس من دسمبر (ك ١) الماضي

وكان قوي البنية طويل القامة ازرق العينين خفيف اللحية ابيضها طلق المحيا تلوح على وجهه امارات المهابة والدعة . وكان كثير الاشغال والمطالعة يقوم الساعة السادسة صباحًا ويطالع الجرائد ويقضي بعض الاشغال الى الساعة التاسعة ونصف ثم يتناول الغداء بسرعة ويقابل الذين يطلبون مقابلته ويخرج لزيارة المدارس والمعامل او الحصون والمعاقل او لحضور الاجتماعات العلمية . ويأكل الساعة الخامسة بعد الظهر ويعود الى مقابلة الذين يطلبون مقابلته ولا ينام قبل نصف الليل ولا يقيم على مائدة الطعام غير نصف ساعة وكان عندهُ مكتبة واسعة ومتحف حاوٍ من جميع الروامز الطبيعية والآلات العلمية وله ولع شديد بالعلوم الاقتصادية والادبية والتاريخية

وكان اذا زار مدرسة من المدارس يمتحن تلامذتها بنفسه ويوزع الجوائز عليهم بيده ويكتب في دفتره اسماء المتمازين منهم حتّى يستخدمهم في دوائر الحكومة عند الحاجة اليهم وكثيرًا ما كان يساعد الشركات الصناعية بالمال تنشيطًا لها

وكان يرئس مجلس وزرائه مرتين في الاسبوع فتدوم الجلسة من الساعة التاسعة مساء الى الساعة الاولى بعد نصف الليل والوزراء يقررون له في غضون ذلك ما جرى في دوائرهم واحدًا واحدًا وهو يصغي اليهم ويباحثهم في ما يذكرونهُ واذا عرضوا له مسألة ذات شأن او مما يتعلّق باموال الرعية لم يقضها تلك الليلة بل اجّل الحكم الى ان ينظر فيها مليًّا . وقد قال العارفون بامره انهُ كان يحترم دستور بلاده احترامًا يقرب من العبادة ولذلك كان لوزرائه الحريّة التامّة لاستعمال سلطتهم ضمن حدود الدستور . الاّ ان تدقيقهُ التام في الخضوع للدستور واعتراضهُ للنظر في اكثر الشؤون بنفسه عرّضهُ لانتقاد كثيرين من رجاله وغيرهم فانهم قالوا كما قال نبرس الشهير وهو ان الحكومة الدستورية ملكها يملك شعبهُ ولكنهُ لا يحكم عليهم اي ان الحاكم هو الدستور والوزراء والنواب . ولعلّ ذلك كان من جملة اسباب الثورة واقواها

وكان اذا زارهُ رجل من رجال العلم او الصناعة لا يدعهُ يخرج ما لم يحادثهُ في موضوع علمه او صناعته . واذا شكا اليه احد لا يصغي الى شكواهُ كل الاصغاء لكي لا يتطاول على

وظائف وزرائهِ ورجال حكومتهِ بل ينصح للشاكي و يرشدهُ الى طرق الشكوى القانونية واما اذا آنس منهُ ان الشكوى محقة وانهُ مظلوم حقيقةً نظر في شكواهُ وانصفهُ من خصومهِ

ودستور برازيل يبيح القصاص بالاعدام ولكنهُ كان يتجنبهُ بقدر طاقتهِ حتَّى لم يكد يسلَّم باعدام احد . وذات يوم شكا اليهِ واحد وقال ان الوزير الفلاني ظلمني فقال لهُ حالاً ان وزرائي لا يظلمون احدًا ثم تغلَّب الحلم على الصرامة فقال لهُ ولكنني سانظر في شكواك ونظر فيها بنفسهِ فوجدهُ محقًّا وانصفهُ من خصمهِ

وروى الدكتور انبريزو فيلهو البلجيكي — وعليهِ اكثر اعتمادنا في ما تقدَّم — ان شابًّا من البرازيليين كتب رسالة طعنٍ وتنديد بالامبراطور وعائلتهِ ثم صار هذا الشاب وزيرًا ومشيرًا وعضوًا في مجلس الشيوخ مدى الحياة وقد ارتقى الى هذه المناصب السامية بذكائهِ واستعدادهِ الفطري ولم يحتد عليهِ الامبراطور ولم يدع تهوُّرهُ وهو في عنفوان الشباب يحول دون ارتقائهِ حينما استحقَّ الارتقاء

وكرمهُ يضرب بهِ المثل فانهُ كان يتصدَّق على الفقراء والمساكين كل اسبوع و ينفق على طلاب العلوم من مالهِ الخاص بما يقوم بنفقاتهم كلها ونفقات التعلُّم . قال بعضهم ان الامبراطور نزل عليَّ ضيفًا وانا في داخلية بلاد برازيل و بيتي مفتوح للرائح والغادي واقام بضعة ايام وانا باذل وسعي لاقوم بحقوق الضيافة . وكأنهُ علم وهو عندي اني كنت مديونًا وعليَّ مال كثير يُطلب مني ايفاؤهُ في تلك الاثناء وليس عندي ما يقوم بهِ فلما خرج من بيتي وخرجتُ لوداعهِ قال لي يا فلان ان في درج الخزانة ورقة ذات شأن فلا تغفل امرها فرجعتُ الى الدرج واذا هو قد اوفى كل الدين الذي عليَّ واخذ الصكَّ من المدابن ووضعهُ في ذلك الدرج

وكان حسن التديُّن بالمذهب الكاثوليكي يقوم بشعائرهِ كلها حتَّى انهُ كان يغسل اقدام المساكين بيدهِ . وكان في بيتهِ زوجًا ودودًا وابًا شفوقًا ربَّى ابنتهُ الوحيدة لتكون خلفًا لهُ في ادارة شؤون الملك وكان ينيبها عنهُ وقت اسفارهِ

ولا بدَّ من ان يعجب القارىء بعد ما تقدَّم من قيام اهالي بلادهِ عليهِ وخلعهم لهُ من الملك ولكن الناظرين في طباع الانسان واخلاقهِ لا يستغربون هذا الامر كلَّ الاستغراب لان تخفيف البلوى يزيد الشكوى والارتقاء السريع يدعو الى استثقال كل حمل حتَّى الخضوع لملك عادل حليم مثل هذا الملك . هذا هو خلق الانسان ولن يغيِّر الله ما بقوم حتَّى يغيروا ما بانفسهم